الجانب الاجتماعى فى المدن الفاضلة

للأستاذ سعيد زايد

المدن الفاضلة حلم الفلاسفة من قديم الزمان . حلم جميل بائع عاشوا فيه زمنا وتمنوا لو يحققوه لينعم العالم بالخير والحرية والمساواة ، هذا العالم الموبوء الملوء بالنفاق والرياء والجهل والمرض والفقر وضع له نظام لو طبق ونفذ حلت السعادة ورفرفت الحرية وقامت الاستقامة مكان الخلق المرذول . وتنفست الناس يمنة و يسرة فلم يروا إلا تفانيا فى حب الخير واخلاصا فى المعاملات . دعا الى تطبيق هـذا النظام فلاسفة اختلفت بيئاتهم وعصورهم فدعا إليه أفلاطون والفارابى وتوماس مور وكامبانيلا وغيرهم ، وهم وإن اختلفوا فى فلسفاتهم وفى الشكل الذى وضعه كل منهم لمدينته الفاضلة إلا أنهم يتفقون جميعا فى نشدان السعادة الكاملة لابنـاء المدينة .

و يطول بنا المقام إذا نحن حاولنا عرض آراء كل هؤلاء الفلاسفة ومناقشة أفكارهم ، و إنما نود أن نقتصر على الفيلسوف الشرق من بين هؤلاء وأعنى به الفارابى ، وفى اقتصارنا عليه لابد لنـا أن نذكر كمقدمة ملخصا لرأى استاذه الروحى افلاطون . عندما أراد افلاطون أن يضع الأسس و لدعائم التى يقيم عليها صرح مدينته لجأ الى مبدئه الفلسفى فى النفس بستقيه ، فرأى أنه قد قسم القوى التى توجد فى الانسان الى ثلاث : الشهوانية ومركزها البطن وفضيلتها العفة . والغضبية التى مركزها الصدر وفضيلتها الشجاعة ، والفكرية التى مركزها الرأس وفضيلتها الحكمة . وما دام فى الفرد هذه القوى الثلاث فان فى الدولة أيضا قوى ثلاث أو بعبارة أدق يتكون المجتمع من طبقات ثلاث : العمال والصناع والزراع وفضيلتهم الإنتاج ، والجند وفضيلتهم الدفاع ، والفلاسفة وفضيلتهم الحكمة أو التأمل . وواضح كل الوضوح أن الفرد لا يصير عاملا محترما الا إذا غلبت قوته الفكرية على قوتيه الأخريين وأعنى بهما الشهوانية والغضبية ، وكذلك الدولة لايستقيم حالها الا إذا تغلبت الطبقة الثالثة أى طبقة الفلاسفة على الطبقتين الاخريين وآل إليها الحكم . فهى وحدها التى تستطيع أن تحقق العدالة وتنفذ فى مشكلات الأمور بما وهبها الله من حاسة سادسة فوق الحواس الخمس هى القدرة على إدراك الحقائق العامة وعلى تفهم المعقولات المجردة .

فرئيس المدينة عند افلاطون يجب أن يكون فيلسوفا ، وليس كل إنسان يستطيع أن يكون كذلك ، فلقد رسم افلاطون منهاجا أو وضع أدوارا يجب أن يمر فيها المرء لعجم عوده ، فمن تخطاها فهو فيلسوف وحق له أن يكون حاكما للمدينة ... ... ولسنا هنا بصدد تفصيل الحديث عن هذه الأدوار ولا بصدد التحدث عامة من مدينة افلاطون — كما قلنا قبلا — وإنما أردنا بذلك أن نشير الى المكانة التى وضعها افلاطون لرئيس المدينة والشروط التى اشترطها فيه .

ونجد أثر ذلك عند الفارابى تلميذه الروحى فاشترط فى رئيس مدينته شروطا تقربه من الأنبياء .

فبعد أن يقرر الفارابى أن الانسان مدنى بطبعه يود أن لا يكون عضوا فى قبيلة فقط بل عضوا فى المدنية والانسانية جمعاء لأنه يشعر بعاطفة الأخوة نحو جميع أفراد البشر ، أقول بعد أن قرر الفارابى ذلك اتجه نحو الرئيس الذى يود أن يجعله قائدا لهذا المجتمع الانسانى الذى ترفرف عليه راية العدل والمساواة .

رئيس تجتمع فيه جميع الخصال الحميدة ، قوى الشخصية ، تام الأعضاء ، ذكى ، لبق ، قانع فى المأكل والمشرب والنكاح ، غيرى لا محبا لذاته ، صادق لا يكذب ، كبير النفس كريم ، عادل ، مبغض للجور والظلم ، قوى العزيمة ، شجاع لا يخاف ، وبالجملة فهو نبى تنقصه الرسالة .

فمهمة الرئيس ليست سياسية فحسب ولكنها خلقية أيضا ، فمن الناحية السياسية هو الرئيس الأعلى لكل المدنية ووزراءه ومساعدوه ليسوا إلا منفذين لأوامره ؛ ومن الناحية الخلقية هو النموذج الذى يقلده المدنيون والمثال الذى يحتذونه ويترسموا خطوات سيره . وما على الرئيس إلا أن يحاول ما استطاع أن يصبغ جميع الأفراد بطبيعته هو ... وبهذا الرئيس يمتزج امتزاجا كليا وجزئيا فى العقل الفعال ويتلقى عنه الرغبات والهداية والمشورة ويتيسر له ذلك بالطريق الكسبى بعكس النبى الذى يتيسر له ذلك بطريق الهبة الالهية . والطريق الكسبى الذى يصل به الرئيس الى الاتصال بالعقل الفعال يتلخص فى الرياضات والمجاهدات والتأمل والنظر ، وعلى كل حال فهذه ناحية ميتافيزيقية لا تهمنا فى الموضوع .

هذا هو رئيس المدنية الفاضلة عند الفارابى وهذه هى الناحية السياسية التى تلتمس عند الفيلسوف العربى ، فهو لم يضع شكلا عاما للحكومة توزع فيه الاختصاصات على وظائف مختلفة ، بل ركز جل اهتمامه فى الرأس معتقدا بأنها إذا صلحت ، صلحت بقية أعضاء

البدن ، فاشترط فى رئيس مدينته أن يكون كاملا من جميع الوجوه، وما دام كذلك فانه لا بد وأن يبغى الاصلاح ونشر العدالة والمساواة ، و إذا قلده الأفراد وساروا على نهجه فان الخير لا بد أن يعم المدينة و ينتشر على ربوعها لواء الحق والطمأنينة .

على أنه يجب هنا أن نفرق بين المدينة الفاضلة والمجتمع الانسانى عند الفارابى، فقد أراد الفارابى أولا أن يدعو الى مجتمع انسانى يعم فيه العدل والمساواة والأخاء وهو قد أخذ هذه الفكرة من تعاليم الدين الاسلامى لا من أستاذه أفلاطون، ولكنه عند ما رأى صعوبة تحقيق هذه الفكرة عدل عنها وقصر كلامه على مدينة محدودة ، ففصل فيها القول ودعا الى التآخى والتآزر ليتكون منها جسم واحد تسرى فيه روح واحدة .

ولقد تكلم فى كتابه اراء أهل المدينة الفاضلة فى فصل "القول فى الصناعات والسعادات" عن تقسيم العمل فوزع الأعمال بالنسبة الى الطبائع ، ودعا إلى إعطاء كل شخص العمل الذى يتفق مع طبيعته لتستقيم الا ، وسواء أقصد الفارابى الى النتائج التى تستخلص من قوله هذا أم لم يقصد فانه سابقا لدوركهيم زعيم المدرسة الاجتماعية الفرنسية الذى دعا الى تقسيم العمل وعقد لذلك كتابا قائما بذته . وسواء أقصد الفارابى أيضا الى النتائج أم لم يقصد فان فى قوله بوجوب إعطاء كل العمل الذى يتفق مع طبيعته هو نفس مايدعو اليه علم النفس الحديث فى نظريات التربية التى تقول بوجوب تعهد الطفل وملاحظته فى الصغر وتوجيهه الى الوجهة التى تتفق مع استعداده ... . وإن لتقسيم العمل أيضا أثره من الناحية الاقتصادية فما دام كل شخص سيوجه الى العمل الذى يتفق مع طبيعته وميوله فإنه لا بد أن يعود ذلك بالانتاج الوافر العميم على الوطن .

هذا هو ملخص رأى الفارابى فى المدينة الفاضلة ، إذا نحن وضعناه تحت مجهر علم الاجتماع الصحيح ، نرى أنه لا يسير وفق قوانينه ولا يراعى لمقدار تحققها عليه . صحيح أن الفارابى قال بتقسيم العمل ولكنها كانت لديه فكرة ينقصها الكثير من التعقل والتوسع ، فهى لم تنتج عنده من دراسة قائمة على الملاحظة والتجربة ، لأنه لم يكن يعنيه أن يعرف الميول ولا الرغبات التى تسيطر على العمل الجمعى بل كان يعنى عناية كلية بما ينبغى أن يكون ولا شأن له بما هو كائن ، وهو بذلك لم يحاول أن يدرس المجتمع دراسة منظمة ثم يستخلص القوانين التى يسير عليها ويضع إصلاحه وفقا لما مراعيا فيها التدرج الذى يسير به الأشياء سيرا طبيعيا لايحس فيه الفرد أن شيئا غير موافق لطبيعته قد أقحم عليه، و إنما استوحى فلسفته وفلسفة أساتذته وخيل له أن أى اصلاح إنما يتم بمجرد رسم الطريق بدون مراعاة للطبائع وبدون أن يبنى كلامه على الوقائع المحسة وعلى القوانين التى يسير عليها المجتمع .

وليس الفارابي بدعا في هذا الميدان بجميع الفلاسفة الذين قالوا بالمدينة الفاضلة لم يراعوا فيها قوانين المجتمع ولم يحاولوا أن يتفهموا عقلية الشعب الذي يعيشون وسطه دائما اتجهوا الى مبادئهم الفلسفية والى ما ينبغي أن يكون بدون أن يضعوا أساسه على ما هو كائن... ... ولقد صدق توماس مور حين سمى مدينته باسم المدينة "التي لا توجد في أي مكان" ، فالمدينة الفاضلة حلم الفلاسفة قديما وحديثا وستظل حلما ما تخلف شيئا من غلوائها، وينظر دعاتها الى الواقع بعين فاحصة ويبدوا إصلاحهم بمقـــدار ما تسمح به ظروف المجتمع وبمقدار تقبله للاصلاح المنشود .

سعيد زايد

مكتبة كلية الآداب — ليسانس في الفلسفة الاجتماع

قال ابن المقفع :

عمل البر خير صاحب .

من ألزم نفسه ذكر الآخرة اشتغل بالعمل .

الجواد من بذل ما يضن به .

انفع الكنوز العمل الصالح .

من عرف ثمار الأعمال كان حقيقا لا يغرس مرا .

خير الأعمال ما دبر بالتقوى .

لا رأى لمن انفرد برأيه .